السيادة .. والعبودية
السيد والعبد

obeikandl.com

obeikandl.com

السيادة والعبودية.. السيد والعبد

اعتمد الإنسان الأول فى إشباع احتياجه من الطعام بالصيد فى جميع البيئات التى عاش فيها أو بجوارها فى ذلك الوقت من غابات ، وصحراء، وأنهار، وبحار، أو بيئة ثلجية، كان الصيد هو مركز الحياة، يسد من خلاله الإنسان جوعه، ويدثر نفسه فى فراء فرائسه ، ويستخدم العظام فى صنع أدواته الأولية. بدأ الإنسان فى استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن عندما ساق صغار الحيوانات الضعيفة إلى مغارته أو منزله البدائى ليتخذها الأطفال لعباً، وتركت لفترة من الزمن حتى تكبر ويذبحها، عندما كثرت أعداد الحيوانات الصغيرة المستأنسة وتكون القطيع من عمليات التناسل تعلم الإنسان الرعى، ثم فكر فى استعمال الحيوان فى النقل، يحمل الإنسان ويحمل مهماته.

عندما انشغل الرجل فى الصيد، كانت المرأة تبحث عن نباتات فوق سطح الأرض، ومن درنات مدفونة، وجمعت المرأة الثمار والحبوب، واحتفظت بها لفترة من الزمن، عندما لاحظ الإنسان أن بعض البذور أو الحبوب التى تركت أو سقطت سهواً قد أنبتت تبين له أنه بالإمكان استنبات هذه البذور أو الحبوب بتركها تحت سطح الأرض أو فوقها مع إمدادها بالماء. كان اكتشاف الزراعة هو بداية استقرار إنسان الصيد، وبداية المدنية بشكلها الأولى ، ومنها مارس الإنسان غريزة التملك من خلال أصول ثابتة وهى الأرض. إن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الأفراد أدى إلى استخدام الضعفاء بواسطة الأقوياء، أن العناية بالأرض تتطلب عمل متواصل ومجهود كبير، لم يستطع الإنسان القوى وحده أو مع أسرته أن يقوم به، كما أن طبيعة الإنسان القوى ذو الغريزة العدوانية تميل إلى الصيد أكثر من الزراعة. حدث النزاع منذ بدأ الخليقة ، وتعارك الإنسان مع قرينه ، تنبه المنتصر فى القتال أن الأسير الحى هو الأنفع والأجدى، وبذلك قلت المجازر البشرية ، وبدأ نظام جديد من الرق والاستعباد ، الذى اتسع عندما أضيف إلى أسرى الحروب، المدنيون الذين لا يوفون الدين، والمجرمون معتادى الإجرام.

obeikandl.com

منذ ذلك الزمن نشأت السيادة والعبودية، ووجد السيد والعبد فكل منهما مكمل للآخر، وعلى مر التاريخ تغير شكل السيادة والعبودية، كما تغيرت صور السيد والعبد، أخذت السيادة شكل القبيلة، أو الأمبراطورية، أو الملكية، أو الدولة، وأخذت العبودية شكل الاسترقاق، والاستبداد والاستعباد. كما أخذ السيد صورة رئيس القبيلة ، أو الأمبراطور ، أو الملك، أو الأمير، أو الطاغية، أو الحاكم. . وأخذ العبد صورة الرقيق، أو الأسير، أو الأجير، أو الخادم . . إلخ. . تعددت الأسماء، والأشكال، والصور، والصفات، ولكن ما زال النظام كما هو يرتع فى نظامنا البشرى.

الإنسان السيد ، ذلك الارستقراطى، الفارس النبيل الذى يتسيد على نفسه كما يتسيد على الآخرين، هو الذى يتحكم فى شهواته ونزواته عندما يريد ذلك، هو من يقود التناغم ما بين متطلبات الروح والعقل والجسد. الروح تصبو إلى التواصل مع الله الخالق القادر، وتقودنا الروح إلى مكارم الأخلاق والفلسفة المجردة، أما العقل المستنير فيزن الأمور بميزان المنطق والاستدلال، الجسد أيضاً له متطلبات من احتياجات وشهوات لا نستطيع أن نتغاضى عنها، التناسق والتناغم مطلوب لأجل أن نكون راضين عن أنفسنا ويرضى الآخرين عنا، متناقضات وجدت فى هذا الكون، مطلوب منا أن نتماشى معها.

السيد الحق هو الذى يقود ويصارع فى سبيل المثل المجردة من النزوات والشهوات، فالحق بيّن والباطل أيضاً بيّن . يجب أن نعيش فى خطر كما قال الفيلسوف الألمانى نيتشه، فى صراع دائم، فالصراع ينمى العقل ويكبح جماح النزوات، الصراع يجعلنا نشعر بذاتنا وتفوقنا على الآخرين، ففى الانتصار نشعر بنشوة الفوز وفى الفشل نعيد ترتيب أوضاعنا وشحن قدراتنا التى وهبها الله فينا وهى قدرات هائلة لو عرفنا قدرها، فى الفشل نشحذ همتنا ونقوى صبرنا واحتمالنا لمعاودة الصراع والنزال، الحاجة تولد الابتكار والاختراع، وألم الهزيمة يولد القوة والإرادة إذا لم نلق بالاً إلى الإحباط واليأس، الحياة صراع دائم ومجابهة مستمرة، مع الذات ومع الطبيعة ومع الآخرين.

السيد هو من يخوض المخاطر ويجابه الأهوال فى سبيل ما يؤمن به من قيم وضعتها روحه الارستقراطية وقادها عقل ذكى له من الخبرات والتجارب المتراكمة عبر سنوات عمره ما يمكنه أن يناور بها فى الهجوم، وأن يخترع ويبتكر ما يمكن أن ينتصر به، السيد هو الإنسان ذو الثقافة العالية الذى يمكنه أن يميز بين الحق والباطل، بين الخير والشر، الذى يعيش حياته بصراحة وبدون التواء أو تزيين أو تزييف، لا يخادع ولا ينافق، السيد هو الإنسان الملم بالعلوم والفلسفات والقيم الروحية والدينية، ذات الهمة المتدفقة الفياضة التى لا تنضب، تواصل الصراع والعيش فى المخاطر حتى الموت، حتى الموت لا يهابه ما دام هو حقيقة ثابتة وواقع محتوم، يعيش حياته بلا خوف ، يموت وهو راض بما فعله خلال مسيرته محدودة الزمان.

وجد الصراع الغريزى منذ بدأ الخليقة الإنسانية، منذ لمس الإنسان التفوق النسبى فى الذكاء وفى القوة الجسدية بينه وبين أقرانه، وظهر الأسر كمحصلة طبيعية لتغلب فرد على آخر أو تغلب مجموعة على أخرى. كان الغالب فى وضع يسمح له بقتل الأسير أو استخدامه. تنازل المهزوم عن حريته للإفلات من موت محتوم ورضى بالعمل لدى الغالب مقابل الحد الأدنى للمعيشة وأصبح الأسير عبداً لسيد قد يضعه القدر فى نفس الموقف.

أما العبودية فتعرف بكونها عرف اجتماعى يتخذ الشكل الجبرى اللاإرادى للاستخدام الإنسانى، ويعتبر العبد ملكية خالصة للسيد أو المالك الذى يستطيع إرغامه على العمل، أو بيعه، أو رهنه، أو التنازل عنه ، أو إهدائه بدون أى اعتراض من العبد أو من أى فرد آخر. فيعتبر العبد ككيان خاضع لمشيئة المالك، حتى حياته كانت تعتبر فى بعض الأحيان ملكاً للسيد المالك.

تطورت العبودية وسادت فى العصور القديمة والعصور الوسطى، ومع التقدم الزمنى والتطور الحضارى اكتشف الإنسان أشكال مختلفة للطاقة غير الطاقة الجسدية فى الوقود الأحفورى مثل الفحم والبترول أو فى الطاقة الكهربية، وقد ظن بعض الفلاسفة أن اختراع الآلات سيبيح إلغاء الرق، ولكن تغير الشكل وتبقى مضمون

العبودية كما هو ، وبدل أن يكون الإنسان عبداً لإنسان آخر فقط، أصبح عبداً للآلة ولمؤسسات صناعية ومالية وتجارية عملاقة، كان العبد قديماً يقيم مادياً حسب جنسه وسنه وقدرته، فالأنثى تعمل خادمة فى المنزل أو تعمل كوصيفة لصاحبة المنزل أو قد تعمل فى البغاء، والذكر يعمل فى الزراعة أو الصناعة أو خادم مطيع لسيده، أصبح الحفاظ على العبد كالحفاظ على الأملاك مثل الماشية أو العقار أو الأرض، وانتشرت تجارة الرق لما لها من عائد اقتصادى يدر على السيد مالاً أو ينهل منها لذة. لقد تحول الإنسان إلى حيوان بشرى يقوم بتربيته وتهذيبه وتهجينه من له حق الملكية الذى كان يشجع تخصيب النساء حتى يزيد من رأس ماله، وقد وصل الحال أن الأغريق اعتبروا أن عملية التخصيب وتربية العبيد أكثر نفعاً وجدوى من تربية الماشية، وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الرق الأسود من زنوج أفريقيا مباحاً فى الأمريكتين خاصة فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية وفى البرازيل نظراً لحاجة هذه الولايات الزراعية إلى الأيدى العاملة فى زراعة القطن فى الولايات المتحدة أو زراعة القصب فى البرازيل.

ما أجمل السرارى والوصيفات فى قصور الملوك والأمراء، خصوصاً الجنس الأشقر ذوات الشعور الذهبية والعيون الزرقاء أو الخضراء، لقد امتلأت هذه القصور بكل أنواع العبيد من صبايا وصبيان، وانتشر البغاء كما انتشر اللواط، وأصبح العبد مادة للحصول على اللذة ومتعة تسر الأعين، وتسرى فى وقت الفراغ، وهى أيضاً وسيلة لتحسين النسل الشرق أوسطى فى الماضى وحتى وقتنا هذا وإن تغيرت الأسماء والمسميات. مازالت العبودية موجودة تحت أسماء مثل الوصيفة أو مديرة المنزل أو مضيفة أو سكرتيرة أعمال. لم يقتصر الرق الجنسى على بلاد الشرق الأوسط ولكنه كان يوجد حتى وقت قصير فى ظل النظم الاشتراكية فى بلاد أوروبا الشرقية نظراً لانخفاض مستوى المعيشة مقارنة بجيرانهم فى أوروبا الغربية. وفى الصين كان الأباء يتخلون عن بناتهم الصغيرات فى فترات المجاعة وبالطبع كانوا يعملون فى الدعارة تحت إشراف سيد قوى بدهائه وعديم أخلاقه، كما وجدت الدعارة أيضاً فى معظم الدول الفقيرة من جنوب شرق آسيا، ولم تخلُ اليابان من

هذا النوع من الأعمال إلا أنها كانت مغلفة ببعض الفنون مثل الغناء والعزف على الآلات الموسيقية فكانت فتاة الجيشا تعمل لإسعاد السيد الغنى، تطربه وتفتنه.

هل استكن العبد طوال فترات استعباده ورضى بحالة العبودية التى قاسى منها طويلاً، حدثنا التاريخ عن ثورات العبيد على مر الزمان، لقد ثار العبيد بقيادة أونوس فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد، ثم جاءت ثورة العبيد المشهورة بقيادة سبارتكوس الذى كون جيشاً من حوالى سبعين ألف من العبيد وهزم الجيش الرومانى فى معارك كثيرة حتى انتهى به الأمر بأن هزم وأعدم فى معركة بريندس.. أما الثورات الفردية للعبيد فكانت غالباً ثورات سلبية عن طريق الفرار من نير سيده، فكان العبد إذا تم إمساكه يعذب أو يعدم.

كتب آدم سميث فى كتاب «ثروة الأمم» : (أن العامل الحر متفوق على العبد لأن الإكراه لا يجعل الإنسان مبتكراً، متخماً وذكياً)، وأرجع سميث غلاء المنتجات إلى استخدام العبيد فى العمل.. حتى نظرة آدم سميث إلى العبودية لم تكن إنسانية بل نظرة مادية تؤدى إلى معاناة السيد من الغلاء.. فلم يكن السيد أبداً ولن يكون رحيماً لأن طبيعة السيد المالك دائماً بلا رحمة أو شفقة حتى إن وجدت الرحمة فلأجل الحفاظ على القيمة المادية للعبد، ومن أجل كسب شهرة زائفة من الرحمة والأخلاق.

لقد استعمر الغرب البلاد العربية والأسيوية والأفريقية وعاملهم كالعبيد، وغزا العرب البلاد الأفرنجية والزنجية وجلب الكثير من العبيد، واستخدم الإقطاعى الصينى أو اليابانى أو الهندى العبيد فى العمل أو فى المتعة، لم يكن الاستعباد مقصوراً على عرق بشرى أو بلد معينة أو جنس دون جنس آخر، إن السيد والعبد وجدا فى كل مكان وفى كل زمان، بالغريزة الموروثة وبالقدر الذى فرض التفاوت والتباين بين أفراد البشر، لن ينتهى مسلسل الرق والعبودية ولن ينتهى وجود السيد والعبد لأنه جزء من نظام كونى أبدى، قد يختلف الشكل وتختلف المسميات ولكن: الاستعباد - الاستبداد - الطغيان - الاستغلال - الاستغفال - الإخضاع- الإذلال -

الإجبار - . . . إلخ، وأشكال أخرى من صور ظلم الإنسان ستظل موجودة فى ظل نظامنا الكونى القائم على الاختلاف ، والتباين، والتفاوت ، والتضاد، وفى ظل غرائز كامنة داخلنا من حب البقاء والسيطرة وانفعالات نعيش بها من خوف وغضب تؤدى إلى عدوان واستسلام:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر
ولابـد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر

بالفعل إذا أراد شعب الحرية والديمقراطية فسوف يثور ضد قوى الطغيان والاستبداد ولكنه سيدفع مقابل هذه الثورة غالياً من إزهاق روح أو جرح أو فقد لقمة العيش، وهنا تظهر الفردية الذاتية عند حساب كل فرد: ماذا سيفقده هو إذا فشل الكفاح وانطفئت نار الثورة وماذا سيجنيه المجموع عند النجاح، أى أن السؤال مختصراً: لماذا أضحى فى سبيل المجموع؟

إذا كانت قوة الإرادة تتمثل فى الطاقة الحيوية التى تدفع الإنسان للتمرد والكفاح بغرض الوصول إلى أسمى هدف يسعى إليه الإنسان وهو :(حريته) ، فإن الأنانية الفردية تحرم المجموع - فى كثير من الأحيان - من نيل الحرية أولاً، ثم إثبات الذات والتقدير الشخصى والجماعى بعد ذلك.

المخاطرة بأغلى شىء لدى الإنسان الطبيعى هى ثمن الحرية كما قال الفيلسوف الألمانى هيجل : (ليس بالوسع نيل الحرية إلا بالمخاطرة بالحياة - والفرد الذى لا يخاطر بحياته قد يتم الاعتراف به كفرد غير أنه لن ينال الاعتراف باعتباره وعياً مستقلاً بذاته).

ليس الكثير منا من يستطيع دفع هذا الثمن فطالما تواجد الضعيف فى نظامنا الكونى فالقوى بالطبيعة سيتواجد أيضاً حتى يحدث توازن فى هذا النظام المبنى على التوازن. يوجد الكثير من ينشد الحرية ويتطلع إلى الديمقراطية ، ويريد أن يعبر عن

أرائه وما يجيش فى صدره، ولكن هل يستطيع هذا الكثير التنفيس أم يكبت ما فى داخله فيحدث الانفجار الداخلى الذى غالباً ما ينتج عنه الأمراض العضوية أو الأمراض العقلية أو الاثنين معاً. إذا ثار الفرد فى المجتمع الديكتاتورى سيوضع أما فى السجن أو فى مصحة عقلية ، وإذا كتم أحاسيسه ومشاعره سيصل به الحال أما إلى الجنون أو إلى أمراض الضغط والقلب فى أحسن الأحوال.

لم يستسلم الإنسان إلى اليأس وابتدع نظام العلاج النفسى الكائن بالغريزة داخل الإنسان، الإيحاء بالرضا والقناعة، وتطورت العلوم النفسية والاجتماعية مع تطور العلم الحديث، واكتشف الإنسان الأدوية المهدئة والمنومة واستفاد القوى مادياً من علاج الضعيف وبيع الأدوية له كما استفاد من منع ثورته التى قد تكلفه الكثير إذا زادت الشرارة واندلعت النيران. واكتشف الإنسان الضعيف سلاح سلبى آخر وهو السخرية من السيد الديكتاتور وتمادى فى السخرية لتشمل حتى ذاته وأصبحت الفكاهة (والنكتة) دواء آخر رخيص وسهل التداول.

إذا تأملنا النظام الحضارى الحديث سنتبين أنه بدلاً أن يكون الإنسان عبداً لإنسان آخر أصبح عبداً للآلة، يصونها ويطورها حتى لا يفقد رزقه كما أصبح عبداً لصاحب الآلة، يعمل الفرد فى نظام أكبر من قدرته الفردية، نظام مركب قام بتنفيذه وتطويره مئات أو آلاف من العلماء والاقتصاديين، يعمل فى مؤسسات مالية وصناعية عملاقة متعددة الجنسيات، يشعر بضآلته أمام الوحش الشرس الجديد فالإنسان ما زال عبداً حتى وإن تطور وتقدم.

قال نيتشه : «فى أثناء رحلاتى التى قمت بها خلال أنواع الأخلاق الرفيعة أو الوضعية التى سادت العالم، والتى لا زالت تسوده حتى اليوم، لاحظت وجود عدة صفات معينة بدت مقرونة بعضها ببعض، وظهرت دائماً فى وقت واحد، حتى ان استطعت أن اكتشف وجود نوعين رئيسيين من الأخلاق مختلفين اختلافاً جوهريا، فهناك أخلاق للسادة وأخرى للعبيد، وذلك لأن تحديد القيم الأخلاقية قام بها إما جنس السادة المسيطرين الشاعرين شعوراً كاملاً والفخورين بوجود مسافة طويلة تفصل بينهم وبين الجنس المسود المغلوب. أو قام بهذا التحديد جماعة الأتباع والرعية

والعبيد المنحطين من كل الأنواع». لقد عرف نيتشه الأرستقراطى بأنه المحب للغزو، المعتز بقوته، القاسى على نفسه وعلى الآخرين، الذى يحتقر الرحمة ويشمئز من الضعف، الذى يبغض الكذب والنفاق والتملق ، لا يتسامح ولا يعرف أنصاف الحلول أو المساومة والمداهنة، ولكنه فى نفس الوقت قد يعفو عن الآخرين، ليس لأنه يميل إلى العطف ولكن لأنه يحب أن يظهر بمظهر القادر الذى يحسن إلى الآخرين، هذا الارستقراطى هو الذى لا يرضى بالعفو من الآخرين لأنه بقوته يأخذ كل شىء، لا أن يتفضل عليه الآخرون. . أنه لا يهتم بنعيم الحياة ورفاهيتها، ولا يحب أن يعيش فى سلام ، إنما يجد ذاته وسعادته فى الانتصار وفى القوة، يشعر بسرور عميق عندما يقابل الشر بمثله أو أضعافه.

فى الطرف الآخر يوجد العبد، هذا الذى يسمى مجازا بالإنسان، خنوع ومستسلم، متخاذل ومنهزم، جبان يهرب من أى قتال أو حتى أى صدام بسيط، يصبو إلى السلام، مطيع لمن أعلى منه، وكل الناس أعلى منه، لا يوجد دونه شىء فهو دائما فى قاع درجات السلم، لا يوجد لديه طموح، متواكل ضعيف. لقد وضع العبد قيما خاصة به ، قيما تمتلىء بالرحمة والسلام، الحب والأمان، التعاطف والإحسان، فهو دائماً يمد يده إلى الغير ينتظر نفايات الأسياد يقبل عليها بسعادة وانبساط، يتقبلها بشكر وامتنان. . هذا العبد هو الذى يصبر على استعباده وذله، ويسمى عجزه وخموله تواضعاً وقناعة . . كما تغيرت القيم من السيد إلى العبد تغيرت أيضاً المعايير، فالعبد لا يستطيع أن يزن بنفس ميزان السيد، فرؤيته محدودة وماديته متواضعة وإمكانياته لا تسمح إلا بالقليل فهى لا تتعدى الاحتياجات الأولية للمعيشة، فتغير صنف طعامه أو ارتداء لبس جديد هو قمة أمله ومصدر سعادته ، يقضى وقت فراغه فى النميمة والسباب، حديثه تافه وسخيف، ثقافته أساطير وخرافات، اللؤم لديه حيطة وذكاء، الغدر طبعه والكذب أسلوبه، سلس القيادة بالعصا، نمرود إذا تمكن، خسيس مع أقرانه ، مطيع لأسياده، يخاف من السيد ويحقد عليه حقداً كامناً دفيناً، حقداً ينتظر الفرصة للانتقام ، رد فعله دائماً سكون واستسلام ناتج من العجز والضعف، يجتر ألم العبودية كل حين فتزيد قوة الحقد

داخله، هذه القوة التى لا تجد تنفيث خارجى تسبب وضاعة وخسة أخلاق العبد من لؤم وسرقة ومكائد . . هذا العبد الذى يتقبل الإهانة والإساءة بوجه بشوش وابتسامه زائفة ، يملئ قلبه طاقة هائلة مضغوطة من الحقد ووازع الانتقام، هذا إذا سمحت له الفرصة بذلك.

ويل للسيد من العبد إذا اتيحت له الفرصة للانتقام، فالعبد يمتلك قوة هائلة من التدمير تراكمت طوال سنوات العبودية والاسترقاق، قوة مترصدة، تحوى كل أنواع الخسة والدناءة، إذا وجدت لهذه القوة منفذ فإنها تهدم وتقتل ، لا يهم أن يكون الغريم سيد متسلط أو قرين له من العبيد، فإن تظاهر العبد بالرحمة ضعفاً فباطنه لا يعرف الرحمة أو الشفقة، وفى تاريخنا القديم والحديث أمثلة كثيرة مثل ثورة العبيد فى روما القديمة بقيادة العبد سبارتكوس وثورة الدغماء فى فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر وثورة روسيا الماركسية فى بدايات القرن العشرين، وحتى وقتنا الحالى تقوم ثورات العبيد فى الدول الأفريقية ، ثورات لا ترحم السيد أو العبد وانتقام لا يفرق بين الرجل وبين المرأة والطفل. فلنقرأ ما كتبه نيتشه فى هذا الخصوص: « هناك ألاعيب وأكاذيب تجعل من الضعف - فضيلة - ، ومن العجز الذى لا يقوى على الانتقام - إحساناً - ومن الوضاعة الجبانة - تواضعاً - ومن الخضوع لمن يبغضهم المرء - طاعة - ووقوف الضعفاء موقفاً سلبياً وجبنهم جبناً شديداً، يقف عند الباب وينتظر فى استسلام، هذا كله يسمونه - صبراً، وقولهم - لا استطيع الانتقام لنفسى - يصبح - لا أريد الانتقام لنفسى، ثم هم يريدون أن يوقعوا فى روعى ليس فقط أنهم أحسن من الأقوياء وسادة العالم مع أنهم مضطرون إلى أن يلعقوا بصاق هؤلاء السادة» . . كتب نيتشه فيما كتب عن العبيد أنهم اخترعوا شيئين جديدين وهما:

أولاً : وجود ذات وحقيقة لها كيانها الخاص ومنفصلة عن الجسم.

ثانياً : القول بحرية الإرادة، فتمكن الضعفاء والمضطهدون من أن يخدعوا أنفسهم، ويخدعوا غيرهم، فيزعمون أن الضعف بإرادتهم واختيارهم وليس مفروضاً عليهم وأن أفعالهم وردود أفعالهم القائمة على العجز هى - فضيلة منهم وطمعاً فى ثواب الآخرة.

obeikandl.com

حكمت مصر طبقة المماليك الذين جلبهم صلاح الدين الأيوبى من شمال أسيا منذ عام ١٢٥٠م، وانتهى عصر المماليك البكوات عام ١٨١١م ليبدأ عصر جديد من الأسرة العلوية، بداية عهد حكم الألبانى محمد على. . وصف لاين بول المماليك فى كتابه «القاهرة - حكم المماليك» بقوله: « لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات التى لم تجمع فى طبقة من الأمراء فى أى زمان أو مكان، فبينما نعرف أنهم عصبة من الأفاقين ابتيعوا بين السلع ونشأوا أرقاء، وربوا سفاكين للدماء، ظالمين للعباد، مخربين للبلاد ، نجد منهم ميلاً غريباً للفنون، يحق لأى ذى عرش وصولجان أن يفخر به على الأنداد والأقران، لم يتخلص المملوك من طباع العبد، فخان ونافق واستبد حين تمكن وتحكم». . لقد وصف أخلاقهم أيضاً أنور زقلمة فى كتابه «المماليك فى مصر» : «ومما اتصف به المماليك خيانتهم الفظيعة، وذلك لأن تاريخهم كله عبارة عن حوادث خيانة متواصلة، وبينما نجد المملوك منهم يصل إلى العرش على أكتاف ثلاثة أو أربعة من مساعديه نجد أن أول ما يعمله عندما يصل إلى العرش أن يجز رؤوس أولئك البؤساء الذين ساعدوه على النهوض والوصول إلى الملك، ومما يجب أن يلاحظ على المصريين فى عصر المماليك أنهم فقدوا الروح القومية تماماً ولم يحاولوا أن يقوموا طول تلك العصور الطويلة ولا مرة واحدة بمحاولة تدل على رغبتهم فى طرد أولئك الأغراب وإعادة استقلالهم».

يذهب الفلاسفة إلى أنه بالرغم من أن الإنسان كائن اجتماعى بالغريزة إلا أنه قد يخوض المخاطر ويستمر فى صراع من أجل ذاته الفردية، فالتنافس فى مباراة رياضية من أجل الحصول على ميدالية ذهبية أو حتى فضية لا تعنى القيمة المادية لها ولكن من أجل إثبات الذات، وبنظرة مجردة لا يهم أن تكون الأول أو الثانى فى الترتيب المدرسى فكلاهما متفوقان ولكن الإحساس بكون الإنسان الرائد والمتقدم على الجميع يغذى طاقاته للمذاكرة والمثابرة حتى يفوز بهذا اللقب. قد يضحى الفرد بحياته حتى يحصل على لقب أول إنسان يصعد إلى قمة جبل ما أو أول رائد للفضاء. فتغطى الغريزة الذاتية الفردية على غريزة حب البقاء.

خلال النزال الدامى وأن كان الفرد أو كانت الجماعة تتمنى الانتصار والقضاء على الطرف الآخر، إلا أن غريزة الجماعة وغريزة الفردية الذاتية يتحدا للدفاع عن وجود الطرف الآخر، فالفرد يريد آخرين ليعيش معهم كما يريد الآخرين لكى يقدروه ويستمد منهم الشعور بزهو الانتصار وتبجيلهم له فان انتهى الآخر فيعيش الإنسان وحيدا، ما من آخر يتسيد عليه ويشبع غروره. قد يتشفى المنتصر فى المهزوم ويستخدمه كعبد.. ولكن سيبقيه حى إذا وجد إنه بفناء المهزوم سيعيش وحيداً.. أنها غرائز كامنة فى جينات البشر حتى يستمر النظام البشرى قائم إلى ما شاء الله الخالق.

ذهب كلود شتراوس وهو أحد علماء الأنثروبولوچيا ، إلى أن العنصرية اختراع قديم، وأن فكرة الأخلاق والإنسانية المشتركة بين البشر جديدة نسبياً، كما كتب المؤرخ الأمريكى كافين رايلى فى كتابه (الغرب والعالم - تاريخ الحضارة): «لم يحدث أن تصورت قبيلة بدائية واحدة إن كل الدنيا أبناء يتسبون إلى الآباء أنفسهم أو الإله نفسه .. وإنما آمنوا بأن لكل قبيلة أسلافها وآلهتها الخاصة، ولم تظهر الأديان التى تنادى بالأخوة الشاملة بين البشر إلا فى الألفى سنة الأخيرة».. سرد رايلى فى كتابه مثالين للعنصرية القديمة، أولهما عنصرية قدماء المصريين التى صورت الناس فى أربعة ألوان كمؤشر على أفكار المصريين عن التفوق النسبى أو الدونية النسبية. كان أقرب البشر إلى الإله مصرى من الشمال أسمر البشرة، يليه مصرى من الجنوب أسود البشرة، وأخيراً أوروبى أبيض البشرة، أما المثال الثانى عن العنصرية القديمة فكان عن العنصرية فى الصين فى عهد أسرة "هان" التى اعتبرت أهل أوروبا من ذوى الشعر الأصفر والعيون الخضراء من نسل القرود.. يرى كافين رايلى أنه بالرغم من استرقاق المصريين أو الصينيين أبناء الأجناس الأخرى، فأنهم لم يجعلوا من الرق العنصرى أسلوباً فى الحياة كما حدث فى الأمريكتين.

فى مقارنة بين الرق اليونانى / الرومانى ، والرق الأفريقى/ العربى ، كتب كافين رايلى: «فى مملكتى رواندا وبوروندى التقليديتين بوسط أفريقيا كانت استقراطية التوتسى - التى تضم حوالى ١٥٪ من السكان تحكم الأغلبية من الهوتو، وهم

أقصر قامة، ومن التوا وهم الأفتح لونا. . وبالمثل حكم بعض المسلمين العرب قبائل الهوسا فى نيچيريا أصحاب الجلد الداكن. . وحدث لديهم ارتباط بين البشرة الفاتحة والسيادة الطبيعية ولكن هذه الممارسات لم تكن عامة بين المسلمين أو الزنوج الأفارقة. . فالاسترقاق الأفريقى من حيث المبدأ - كما فى اليونان وروما - لا شأن له بالعرق. . بل أن أقسى الرق فى العالم القديم هو الرق اليونانى / الرومانى وليس الرق الأفريقى. . لقد استخدام اليونان والرومان عبيدهم من جميع الأجناس فى العمل الشاق فى الزراعة. . بينما استخدم الأفارقة المهزومين كمعاونين ومساعدين فى الأعمال المنزلية، كما يرى رايلى أن الأوروبين الغربيين فى العصر الحديث هم الذين طوروا الرق واستخدموا الاستعباد على نطاق واسع، بنقلهم جماعات سكانية بأسرها من أفريقيا إلى عالم جديد، وحطموا عائلاتهم ومحوا شخصياتهم وتراثهم وعاملوهم معاملة الحيوانات.

تعددت أسباب الصراع بين البشر، منها الحصول على الاحتياجات الرئيسية إذا رأى الفرد أن غيره يتحكم فيه ويضن عليه لإشباع هذه الاحتياجات، ومن عدوانية اليأس الذى يجد نفسه لن يخسر شيئاً فى صراع طالما أن حياته منتهية، ويتبقى صراع المنافسة من أجل أن يضع الإنسان نفسه فى مكانة متقدمة فى السلم الاجتماعى، هذا الصراع الذى يتمخض عنه كون السيد وكون العبد، قد ينشأ الصراع الأخير من أمور تافهة وما أكثر المبررات، وما أسهل تفسير الأمور حتى تتوافق مع أرائنا ومعتقداتنا، وضع الإنسان وفق هواه معايير للتقييم، حتى بعض القيم الدينية اختلفت باختلاف الأديان السماوية والغير سماوية، وبصفة عامة دائماً ما يميل الفرد إلى مافيه مصلحته الشخصية ويختار عقائده وقيمه ومعاييرة التى تتواكب مع هذه المصلحة.

يعيش بعض الناس مؤمنين بحتمية القدر، وقد اكتسبوا هذا الإيمان من خلال التجارب الشخصية، ومن العقيدة، والأساطير الموروثة، فعندما يقتنع الفرد بأن مصيره غير قابل للتغير، وأن لا مفر من قدره، فمن السهل عليه أن يعيش راضٍ عن مصيره أو قدره المحتوم، فلا فائدة من المقاومة والكفاح، وحيث لا يجدى السعى من وجهة نظره إلى تحسين وضعه أو نيل حريته المفقودة، إذا قدر له أن يعيش منبوذاً، أو

فى وضع اجتماعى متدنى، أو كعبد ذليل، حتى الأحلام قد تتضاءل أو تمحى ولايتبقى له إلا الأمل فى الفردوس الأعلى، كتب ريتشارد هوجارت فى هذا المجال ما ورد فى كتاب "المقاومة بالحيلة" :« عندما يشعر الناس أن ليس فى إمكانهم أن يفعلوا الكثير بصدد العناصر الأساسية فى وضعهم، ويشعرون بهذا، ليس بالضرورة مع كثير من اليأس أو الخيبة أو الغضب، بل بوصفه حقيقة من حقائق الحياة، نجدهم يتبنون إزاء هذا الوضع مواقف تسمح لهم بأن يعيشوا حياة يمكن عيشها من دون أن يخالجهم شعور دائم وضاغط بالوضع الأكثر اتساعاً ككل. وهذه المواقف هى التى تزيح العناصر الأساسية للوضع لتصنعها ضمن ملكوت القوانين الطبيعية، والبعد المعطى سلفا والذى يبدو الآن وكأنه المادة اللازمة بالضرورة ليعيش الحياة. . إن مثل هذه المواقف، التى تبدو فى نهاية الأمر منتمية إلى نوع من القدرية، وتستتبع القبول الكلى، غالباً ما تكون تحت المستوى التراجيدى، وتنتمى كثيراً إلى وضعية الافتقار إلى خيار آخر».

لقد عاشت الجماعات الدنيا بثقافات تحتية مميزة، قد تكون هذه الثقافة غريبة وشاذة للإنسان السوى العادى، ولكنها بالتأكيد هى ثقافة نتاج عهود طويلة من الإحساس بالدونية والضعة، والإيمان بالطبقية والاستسلام، لم تغيرها ثورات قليلة، على مدى قرون كثيرة، انتهت بالهزيمة ، فترسخ الإيمان بحتمية الإذعان.

•

إذا كان الأرستقراطى الأوروبى فى القرون الماضية يحول أى إهانة كلامية إلى ميدان القتال المميت لأحد الطرفين المتنازعين ، فإن العبيد الملونين فى الولايات المتحدة كانوا يتدربون على المباريات الكلامية، التى لا يتحقق النصر فيها إلا لمن يسيطر على ذاته، ويتسم بضبط النفس لتحمل الإهانات البذيئة ، والسباب الذى يمس الأم أو الشقيقات. وعلى كل طرفى النزال أن يستنبط أحط الشتائم ، حتى يثير الطرف الآخر، الذى يحاول أن يكبح جماح غضبه حتى لا يخسر المباراة. أيضاً خلقت طبقة العبيد أساطير خاصة بها، تمجد فيها أبطال خياليين نابعين من جذورهم، أو تحلم فيها بالمدينة المثالية يوتوبيا. ثقافة لم تأخذ حقها من الدراسة والتحليل، إما لضعة هذه الطبقات، أو لتخدير الضمير لكى ينسى الإنسان ما يفعله برفيقه الإنسان، أو نظام بشرى فيه كل من الجبروت والضمير.

كتب عالم الاجتماع جيمس سكوت فى كتابه "المقاومة بالحيلة: « إن الجماعات الخاضعة ربيت اجتماعياً من قبل الآباء ضمن طقوس تكريم وتبجيل تقيهم شر الأذية، وعلى سبيل المثال، نذكر أن من تناقضات العبودية القاسية، أن يكون فى مصلحة الأمهات العبدات أن يبقين على أبنائهن فى روتينية الأمتثال والتطابق مع المألوف طالما أن أمنيتهن تكمن فى الحفاظ على سلامة هؤلاء الأبناء ، وإبقائهم إلى جانب الأمهات. هنا خارج إطار مسألة الحب، نراهن وقد ربين أطفالهن اجتماعياً بحيث يرضون سيداتهم أو سادتهم، أو على الأقل لا يثيرون نقمتهم. أما مدى عمق هذا الامتثال ، وكم ثمة من المشاعر الخلفية واللؤم الملون لها والذى يقف على خلفية هذا الأداء، فأمران من المستحيل سبرهما انطلاقاً من نظرة تقف عند السطح».

لم تكن السيادة والخضوع هى الفروق البارزة بين السادة والعبيد، فلغة وصيغ مخاطبة السادة تختلف عنها عند العبيد الأرقاء، قام علماء الاجتماع اللغوى بأبحاث عديدة للتحليل التاريخى لهذه الفروق، فكلمة (ولد Boy) التى يخاطب بها السيد عبده، تقابل كلمة (سيدى Sir) عندما يخاطب العبد سيده . فى دراسة شملت الفروق اللغوية، كتب جيمس سكوت فى كتابه "المقاومة بالحيلة" :« ان واقع السيطرة يمكن قراءته فى استخدام الأشكال اللغوية المصاغة بشكل تنعكس فيه وتستبق أجوبة الخاضع ، وعلى هذا النحو استخدم الشكل التساؤلى، مثل أليس الأمر كذلك. أو اللجوء إلى رفع رنة الصوت عند نهاية ما كان من شأنه أن يكون فى أحوال أخرى مجرد عبارات تصريحية، مما يشير إلى البحث عن طمأنينة ما، أو عن موافقة قبل مواصلة الكلام، ومن بين علامات الخضوع اللغوية الأخرى، الاستخدام المتزايد بصيغ الإفراط فى التهذيب مثل: هل يمكنك أن تكون من اللطف حتى ترضى، والتى تستخدم بدلاً من المطالبة بفعل شىء ما، أو الاستخدام المتزايد لقواعد اللغة المفرطة فى صحتها مثل: نوع من أو شىء من، وهو استخدام يكون من شأنه عادة أن يضعف أية جملة تصريحية، أن إجابات العبيد عادة ما تتميز بالهروبية والتسويف وادعاء الجهل والحمق والكسل والبلاهة خوفاً من المسئولية وهروباً من فعل شىء قد يفيد السيد» . فلنقرأ النصين التاليين اللذين وردا فى نفس المرجع، من

العبيد السود قبل وأثناء الحرب الأهلية الأمريكية : « ان الناس يعيشون ويموتون وسط الزنوج، دون أن يعرفوا - بالمقارنة - الشيء الكثير عن صفاتهم الحقيقية أنهم شيء أمام البيض، وشيء آخر أمام أهلهم الملونيين، الغش في حضرة الأول كان واحدة من سماتهم المميزة ، سواء أكانوا مملوكين أو أحراراً، في طول الولايات المتحدة الأمريكية وعرضها». ويقول العبد في النص الثانى: «لقد عرفت دائماً كيف أمازح البيض بطريقة حسنة ، وكان على أن أمثل دور الأحمق في بعض المرات - وكنت أعرف كيف أنه يتعين على ألا أذهب بعيداً وأدعهم يعرفون ما الذى أعرفه، لأنهم لو عرفوا لاستفادوا من ذلك بسرعة. . كنت أعرف أن على أن أكثر من التواضع وأن أسكت في حالات كثيرة حتى أدبر أمورى ولقد نجحت فى هذا كثيراً إلى درجة أنهم لم يفقهوا من كل هذا شيئاً، لذلك كان فى وسعى أن أتوجه إليهم وأطلب منهم خدمة يؤدونها لى. لقد كان من عاداتهم أنهم يطلقون عليك اسماً محبوباً إن أنت أطعتهم، وتصرفت تصرفاً حسناً حين تلتقى بهم، ولم تطرح عليهم أية أسئلة حول ما يقولونه فى حقك. . أما إذا بدأت بالصراخ مطالباً بحقك، وشاكياً من سوء معاملتهم لك . . فأنه سيكون من شأنهم أن يقتلوك».

إذا تركنا العبد الأمريكى الزنجى، ورجعنا بالتاريخ إلى العصور القديمة واتجهنا بالجغرافيا إلى الشرق فى الهند البوذية، نقرأ هذا النص الذى ورد فى نفس المرجع السابق للعالم الاجتماعى جيمس سكوت : « إن عبيدنا يبدون تصرفاتهم الجسدية أمورا، وبكلامهم أموراً أخرى، لكنه فى أذهانهم أموراً ثالثة - أنهم ما إن يروا سيدهم حتى ينتفضوا واقفين آخذين منه ما يحمله بين يديه متلفتين منهمكين، يتركون شيئاً ويأخذون شيئاً آخر، وثمة آخرون يشيرون إلى مقعد، ويروحون عنه بالمروحة اليدوية، ويغسلون قدميه، فاعلين كل ما يتعين فعله. . لكنهم حين يكون السيد غائباً، نراهم لايهتمون حتى بما إذا كان الزيت قد نفذ، ولا يكلفون أنفسهم مشقة الالتفات لما إذا كان سيدهم قد خسر المئات أو الألوف. . إن أولئك الذين يبدون أمام سيدهم ضروب الخضوع له قائلين - يا سيدنا . . يا مولانا - يقولون عنه كل ما لا يقال ، وكل ما يشعرون أنهم بحاجة لقوله ما أن يغيب» . . نفس صفات

العبيد نجدهم حاليا فى خدم المنازل، والفلاح الأجير، والعامل اليدوى، والعاملين فى الجهاز الحكومى أو القطاع العام. . فالعامل أو الموظف الحكومى فى النظام الاشتراكى أو الشيوعى الشمولى ينظر إلى الدولة المالكة نظرة العبد إلى السيد، فهى التى تستخدمه نظير توفير احتياجاته الأولية من مأكل ومسكن وملبس. . لا مانع أن يتظاهر العامل أو الموظف بالعمل وهو لا ينتج، لا مانع أن يكذب أو يرتشى أو يسرق، فالمالك هو الدولة - السيد العام الغير متواجد الذى لا يحسن مراقبة أملاكه- فلا مانع أن ينهب العبد من هذا المال السائب ، لذلك فشل النظام الشمولى، وفشلت أيدلوچيته ، وانتصر السيد الخاص (قطاع خاص) الذى يدير ماله ويراقب عبيده بغض النظر عن إنسانية هذا النظام الجزئى - السيد / العبد (Subset) ، فإنه نظام يلائم النظام البشرى العام (Human System / Human Set).

إذا ارتدى الإنسان قناع السيد لوضع حاجز بينه وبين من أقل منه، ولرسم الهيبة والعظمة على نفسه . . يرتدى قناع السيد وجلبابه ، يتصرف كسيد ، يبدو حازماً وراضياً، يدعى الثقافة والوقار، فينبغى عليه ألا ينزعه، فخلع القناع سيجلب عليه سخرية ورثاء الآخرين من أسياد وعبيد، سوف يفقدا الثقة فيه مستقبلا. سيتعرض من يرتدى قناع يخالف طبيعته لضغوط نفسية من الخوف ومن عدم الاستمرار وما سيجلبه عليه خلع ثوب السيادة من آثار سلبية. سيضطر الممثل فى النهاية - ومعظم البشر يقوم بتمثيل دور مخالف لدوره فى الحياة المتماشية مع طبيعته وإمكانياته وظروفه - إلى الاستمرار فى التمثيل ونبذ فكرة خلع القناع، وكما قال العالم الاجتماعى جيمس سكوت: « على الملك الإلهى أن يعيش كإله، وعلى الملك المحارب أن يتصرف كجنرال شجاع» . . يعيش الممثل المرتدى قناع يخفى به طبيعته فى صراع مع الذات، محاولاً إقناع نفسه بغير مكنونات ذاته، متعرضاً للإصابة بانفصام الشخصية أو احتمال الانهيار.

ابتدع العبيد والمحكومون بالقوة طرق كثيرة للمقاومة السلبية والمقاومة التحايلية، بدلاً من التصادم مع السيد المسيطر يقوم الخاضع بالتراضى فى العمل أو نشر الأكاذيب والشائعات أو الحكايات الشعبية التى تسىء إلى السيد ، تتعدد صور

obeikandl.com

الاستهزاء فى ألفاظ وتعبيرات ظاهرها برئ وباطنها سخرية من الخاضع للتنفيث عن الكبت المكنون داخله ، وفى بعض الأحيان يكون الصمت الممزوج بابتسامة حادة ونظرة تحدى ستاراً يخفى وراءه شحن طاقة الغل والحقد الذى يعتلى سريرة خاضع ذاق قسوة الذل والهوان، ومرارة الصبر والحرمان. وتنتشر هذه الأساليب الخبيثة للمقاومة أيضاً فى الأوساط الشعبية الفقيرة، والتى تشعر بالخضوع للقوى المسيطرة من طبقات تعلوها اجتماعياً ومادياً. ومن مظاهر المقاومة السلبية أو الاحتجاج الخفى تدمير الممتلكات الخاصة، وتحطيم الآلات فى المصانع، ونزع المزروعات والأشجار، كلها أفعال لا تعود على المدمر بفائدة إلا التشفى والانتقام من طبقة أعلى، لقد عانى ملاك السيارات فى مصر مثلاً من تخريب سيارتهم بمرور آلة حادة (مسمار فى أغلب الأحيان) على هيكل السيارات المنتظرة أو تفريغ إطارات السيارة. لم تقتصر عملية التخريب والتدمير على الأملاك الخاصة فقط. بل تعدت إلى الأملاك العامة، حيث تكون نظرة هذه الطبقة إلى الأملاك العامة، هى نظرة العبد الخاضع إلى أملاك السيد، المالك، الحاكم، المستبد. يبرز هذا السلوك خاصة فى المجتمعات التى تتباين فيها الطبقات، وتتفاوت فيها الدخول، والشعوب التى تحكمها سلطة بعيدة عن الديمقراطية والحرية ولا يجد فيها الخاضع وسيلة للتنفيث عن مكنوناته الداخلية. لايستطيع الكاتب أن يفرغ ما بداخله من أفكار، خوفاً من حاكم مستبد أو من محكوم متزمت ومتطرف، وأقصى ما يمكن عمله أن يكتب بصورة مبهمة، عن مجتمعات أخرى خيالية ، ويمكن للقارئ الفطن أن يفهم ما بين السطور أو لا يفهم أحداً، فهذا شيء لا يهم إلا عدو يسعد بتفشى الجهل والظلام ، والكبت والاستسلام.

ظهرت صورة المحتال الشريف فى ثقافات الطبقات الدنيا، والتى ترى أن السيد القوى لا يمكن التغلب عليه إلا بالحيلة، أو بالسرقة، فانتشرت حكايات وليم تل السويسرى، وأدهم الشرقاوى المصرى. كتب جيمس سكوت فى كتابه "المقاومة بالحيلة": «لا ضرورة لقدر كبير من التحليل الدقيق لنلحظ أن الوضع البنيوى للمحتال البطل، والخطط التى يستخدمها تحمل شبهاً شديداً بالمأزق الوجودى

للجماعات المحكومة . . وشعار المحتال البطل يظهر فى الواقع فى قول للرقيق من كارولينا الجنوبية - أحدى الولايات المتحدة الأمريكية - هو للبيض مكائدهم وللزنجى حيلة، ولقاء كل مكيدة واحدة من البيض، يحتال الزنجى مرتين، أن قصص المحتالين تضم كذلك قدراً من العنف والعدوان . . وهناك إثبات يربط مثل هذا النوع من العدوان الجامح بأوضاع انتقامية حادة، ولاسيما الحكايات الشعبية العدوانية بمجتمعات تكتب العدوان المكشوف . . وبدون أن نتناول نظريات التصور أو الإسقاط والتنحية، يكفى أن نتنبه إلى أن المضطهد الذى يخدع خصمه المسيطر عادة فى هذه الحكايات يستغل تغلبه حتى تحقيق الثأر الجسدى التام . . إن حكايات الصور المتحركة والتى تعرض مشاهد - توم - (الفأر) الضعيف الذى ينتقم بالحيلة من (القط) القوى المستبد - چيرى -، والتى تلقى قبولاً لدى الكبار والصغار، ما هى إلا إسقاط لنظرة الطفل الضعيف إلى الفرد القوى، والذى يخضع له الطفل، متمثلاً فى الوالدين أو الأخ الأكبر أو من هو أكبر وأقوى منه من أقرانه فى المدرسة أو المجتمع المحيط . . كما يمثل انتقام الفأر الضعيف لدى الإنسان البالغ رغبته فى الانتقام من الأقوى منه».

كان السيد الذكى - خاصة فى العصور الحديثة - يسمح للعبد بتفريغ بعض من الضغط النفسى عن طريق تساهله فى بعض الأحيان حتى لا يسبب الضغط الواقع على العبد، تهوراً أو يأس مدمر، يسبب الضرر للسيد . . سمح السادة البيض للأرقاء الزنوج فى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية التى يكثر فيها الزنوج، بإقامة الاحتفالات والكرنفالات كوسيلة للترفية والتسلية بعد مجهود شاق فى الزراعة والخدمة المنزلية، أيضاً للتنفيث عما يجيش فى داخلهم عن طريق النكات أو السخرية من سادتهم، وأصبحت هذه الاحتفالات صمام أمان ضد أعمال التمرد، والعنف، والنهب من مجتمع الطبقة الدنيا من عبيد وفقراء أحرار، كانت أعمال السرقة والنهب، والتخريب وحرق المحصول، تعتبر شجاعة وعمل انتقامى غير شرير فى ثقافة هذه الطبقات . . ابتدع السيد الجديد من رجال أعمال وساسة، الكثير من وسائل الترفيه والاحتفالات، والكرنفالات، والمهرجانات الفنية والأدبية، والمباريات الرياضية، والمسابقات الأولمبية، لشغل وقت فراغ الطبقات العاملة،

obeikandl.com

وللتنفيث عن ضغوط العمل، وتحويل الأنظار عن التفاوت الطبقى، والنظرة التباينية، التى غالباً ما تؤدى إلى العصيان والتمرد. . إن نجاح عصيان واحد أمام جماهير عريضة لها آثار سيئة للسيد الذى غالباً ما يواجه عصيان أكثر من فرد، أو تمرد شامل، إذا لم يقمع العصيان الأول بحزم، وبدون شفقة، فعلى السيد إما أن يسمح بدرجة من التساهل المخفى (التساهل مع التظاهر بالحزم) لتخفيف الضغط عن الطبقة الدنيا وحتى لا يحدث انفجاراً سيء الآثار من الصعب معالجته، أو أن يواجه أى عصيان أو تمرد بالشدة ومن غير رحمة ودون تهاون.

لقد انتهى عهد جلد العبيد بالسياط، وتحول الجلد إلى ضغط نفسى لتلبية احتياجات الفرد وأسرته، مع تنوع المنتجات وكثرة الاحتياجات، وزيادة الجرعات الإعلانية. . إذا كان القليل يكفى لإشباع المتطلبات الأساسية من طعام أو شراب أولاً، فإذا تم هذا الإشباع يبدأ الإنسان فى السعى لسد الحاجة إلى الكساء والسكن، ولكن هل يكتفى الإنسان إذا تم تلبية جميع احتياجاته الأولية، بالطبع سيكمل مسيرة السعى لنيل مزيد من الاحتياجات وللظهور بمظهر لائق من أجل وضع اجتماعى متميز، فى مجتمع يشعر فيه بلذة التفاخر والمباهاة. . فى جميع المراحل السابقة يوجد احتمال التنافس والصراع.

ظهر فى القرون الوسطى فى أوروبا المظلمة، وفى الشرق والدول الشيوعية فى القرن العشرين نوع آخر من الاستعباد، وهو الاستعباد الفكرى أو الأيدلوچى ، لايسمح للفرد فيه أن يعبر عن رأيه الذى يخالف رأى النظام السائد، اعتقلت السلطة الديكتاتورية السيد أو الإنسان الحر، ومارست فيه كل أنواع العذاب البدنى والنفسى حتى لا يغير من أفكارها ومعتقداتها، الموت أو السجن مدى الحياة كبديل لحرية الإنسان الذى حرر أفكاره من معتقدات الجدود الموروثة أو من كانت له أفكار جديدة لا تلائم السلطة الديكتاتورية.

سوف نسرد فقرة من كتاب «نهاية التاريخ» للكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما الذى نقلها بدوره من "مقدمة لقراءة هيجل" لألكمندر كوچيف: « الإنسان الكامل

الحر حرية مطلقة، الذى يرضيه حاله الذى هو عليه على نحو قاطع ونهائى، هذا الإنسان الذى بلغ حد الكمال والاكتمال بهذا الرضا ومن خلاله، هو العبد الذى انتصر . . فإن كانت السيادة الخاملة طريقاً مسدوداً، فإن العبودية النشطة هى مصدر كل تقدم إنسانى واجتماعى وتاريخى، وما التاريخ إلا تاريخ العبد النشيط» ، ولكن تعليقنا على هذا القول هو أنه إن كان للعبد النشيط حافز قوى لكسر نير العبودية من خلال تحسين أحواله وابتكاراته واختراعه والخوض فى الحروب للدفاع عن أسياده ، فإن السيد أيضاً ان وجد عنده حافز إرادة القوة للترقى والصعود إلى أعلى سلم الوضع الاجتماعى، وبدافع القضاء على ملل وقت الفراغ، فإنه يبتكر ويتفوق فى الفنون والعلوم الأدبية والاقتصادية وغيرها. . السيد والعبد، كل منهما قد تخور همته ويستسلم إلى قدره، فيهمل السيد نفسه ويضيع منه كل شىء من ثروة ومركز اجتماعى وكرامة، كذلك يرضى العبد بعبوديته وكونه كحيوان بشرى يباع ويشترى. . أيضاً لكل منهما حافز للصعود، فالسيد يصبو إلى التفوق على أقرانه الأسياد، يريد المجد والشهرة ، فطمع وغرور الإنسان لا ينتهى ويسميه البعض الطموح والكبرياء، أما العبد فيتطلع إلى كسر قيد العبودية من خلال العمل والتفوق فيه، يريد العبد أن يكون حراً، سيداً جديداً فى عالم مفعم بالأسياد والعبيد، ومن هنا جاءت الدورات من صعود وهبوط، من تسيد واستعباد، هذه الدورات التى تعتبر من سمة النظام الكونى وما أكثر من سمات الكون.

بحث كثير من المصلحين الاجتماعيين والفلاسفة السياسيين على مر التاريخ موضوع السيادة والعبودية والديمقراطية والطغيان، ولكن مقالة العبودية المختارة للفرنسى اتين دى لابويسيه فى القرن السادس عشر كانت تعتبر بداية الحث على الثورة ضد الطغيان والعبودية فى القرون الوسطى تمهيداً لانتشار الفلسفة السياسية الحديثة لتبدأ القارة الأوروبية بعد ذلك بعدة قرون فى تطبيق النظم الديمقراطية والحرية السياسية. . تعجب لابويسيه من الذين استحبوا العبودية ورضوا عنها بالرغم من أننا كبشر قد خلقنا أحراراً: « أى رذيلة تعسة؟ أن نرى عدداً لا حصر له من الناس لا أقول يطيعون بل يخدمون ولا أقول يحكمون بل يستبد بهم. . لا ملك لهم ولا أهل

ولا نساء ولا أطفال بل حياتهم نفسها ليست لهم! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من جيش ولا من عسكر أجنبى ينبغى عليهم الذود عن حياتهم ضده بل من واحد، لا هو بهرقل ولا شمشون بل خنث».

الكثرة تغلب الشجاعة ، ولكن إذا وجدت الكثرة وتفشى الجبن فلا طائل منهم، وفى هذا يكتب لابويسيه فى نفس المرجع السابق: « لو أن رجلين ، لو أن ثلاثة أو أربعة لم يدافعوا عن أنفسهم ضد واحد لبدا ذلك شيئاً غريباً لكنه ممكن، لو سعفا القول عن أن الهمة تنقصهم، ولكن لو أن مائة، لو أن أن ألفا احتملوا واحداً ألا تقول: أنهم لا يريدون صده، ليس لأنهم لا يجرؤن على الاستدارة له، لا عن جبن بل احتقار له فى الأرجح واستهانة بشأنه، فأما أن نرى لا مائة ولا ألف رجل، بل مائة بلد، ألف مدينة، مليون رجل، أن نراهم لا يقاتلون واحداً، أقصى ما يناله من حسن معاملته أى منهم هو القنانة والرق، فأنى لنا باسم تسمى به ذلك، أهذا جبن؟ إن لكل رذيلة حداً تأبى طبيعتها تجاوزه، فلقد يخشى اثنان واحدا ولقد يخشاه عشرة، فأما ألف، فأما مليون ، فأما ألف مدينة إن هى لا تنهض دفاعاً عن نفسها فى وجه واحد فما هو بجبن لأن الجبن لا يذهب إلى هذا المدى، كما أن الشجاعة لاتعنى أن يتسلق امرؤ وحده حصناً أو أن يهاجم جيشاً أو يغزو مملكة . . فأى مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذى لا يستحق حتى اسم الجبن، ولا يجد كلمة تكفى قبحه والذى تنكر الطبيعية منعه، وتأبى اللغة تسميته؟».

وكما دعى لابويسيه فى هذ المقال إلى الثورة، فقد دعى أيضاً إلى المقاومة السلبية من خلال الامتناع عن مساندة الطاغية ليفقد قوته، هو الذى يقهر نفسه بنفسه أو يثور لينال حريته، وفى تحلل منطقى عرض لابويسيه عملية القناعة بالعبودية: « وأنه لأمر يصعب على التصديق أن نرى الشعب متى تم خضوعه يسقط فجأة فى هاوية من النسيان العميق لحريته إلى حد يسلبه القدرة على الاستيقاظ لاستردادها، ويجعله يسرع إلى الخدمة صراحة وطواعية حتى ليهيأ لمن يراه أنه لم يخسر حريته بل كسب عبوديته. . صحيح أن الناس لا يقبلون على الخدمة فى أول الأمر إلا جبرا وخضوعاً للقوة، ولكن من يأتون بعدهم يخدمون دون أن يساورهم أسف ويأتون طواعية ما

أتاه السابقون اضطرارا، ذلك أن من ولدوا وهم مغلولو الأعناق ثم اطعموا وتربوا فى ظل الاسترقاق دون نظر إلى أفق أبعد يقنعون بالعيش مثلما ولدوا. . ثم إنه لما كان التفكير فى حالة مختلفة أو فى حق آخر لا يطرأ على بالهم ، فهم يأخذون وضعهم حال مولدهم مأخذ الأمر الطبيعى».

كثير من المجتمعات لم تعرف نظام الرق والاستعباد طول تاريخها، فشعب الأسكيمو الذى يعيش فى القطب الشمالى ، فى بيئة جرداء باردة، وشتائه طويل ومظلم، وصيفه قصير ومعتدل نسبياً، لا يوجد فى هذه المجتمعات ملكية خاصة عدا الأدوات والمعدات الفردية. . فهم يصطادون الأسماك والطيور والحيوانات ذات الفراء، يأكلون لحمها، ويحيكون فرائها ويصنعون من عظامها أدواتهم المنزلية، ومعدات الصيد، توزع أعباء العمليات الإنتاجية، ونتاج عملهم من طعام ومصنوعات بسيطة، بالتساوى على الجميع، نساء أو رجال فى أدغال أفريقيا وفى الجزر المتناثرة فى المحيط الباسفيكى والأطلنطى وقبائل الهنود الحمر، لم يعرف هذا النظام الذى ابتدعته الحضارات القديمة، ففى هذه المجتمعات تعيش الأسرة أو القبيلة حياة تعاونية يسودها الحب والوئام . . حتى إذا اتسمت بعض القبائل بالعنف فهو عنف لا يؤدى إلى نظام العبودية. . فجميع مشاكلهم واختلافاتهم يتم حلها إما بطريقة سليمة عن طريق مجالس القبائل أو مجالس العشائر، أو بقتال يؤدى إلى إنهاء الحياة، مجتمعات لم تعرف النظام الطبقى، لا فى الدين أو فى التوازن الاجتماعى. . إذ توجد مجتمعات عاشت ومازالت تعيش دون ذل العبودية وهوان الخنوع، إذ تستطيع باقى المجتمعات - وخاصة المجتمعات الشرقية - أن تثور ضد العبودية بجميع دروبها ، هذا إذا أرادت الشعوب ، ورضت بالتضحية دون الذل والهوان.